

## الادب في سيرة أمة:

## ملتان...

[ الفتيادة الخالصة التي غنت أروع  
أناشيد الجبال والحرية والخيال ... ]

للاستاذ محمود الخفيف

- ٢٣ -

## البرسبيريتر والصورة الثانية:

ويضرب ملتان لقومه مثلاً لما يقع من الضر إذا اختنقت حرية  
الرأى فيستعيد ذكرياته عن رحلته في إيطاليا ويذكر كيف عده  
المثقفون هناك سيداً بمولده في إنجلترا موطن الفلسفة الحرة إذ  
كانوا يظهرونه على تألمهم وحسرتهم لما تصانى المعرفة عندهم من  
تمسك وإعانت وقيد؛ ويقول ملتان إن ما يسانيه طلاب المعرفة  
هناك من قيود هو سبب ما اكتنف مجد أولى الذكاء من  
الإيطاليين من ضباب، وإلى تلك القيود يعزى مَلَكُ الإيطاليين  
وإدعاءهم وما خلتان بارزتان في أكثر ما يكتبون ...

ويشير ملتان في فقرة قوية بالغة الأثر في النفوس إلى ضحية من  
ضحايا الحرية وذلك هو جليليو الذي جاهد طويلاً ليكشف عن  
الأبصار ما حجب عنها النور من غشاوة، وينزع عن القلوب  
ما طمس عليها من خرافة وجهل، فكان جزاؤه السجن والمهانة  
وقد تحطم هيكله الذي آده الباء كما آده السنون وذهب بصره  
فأحاطت به الظلمة وهو الذي طالما صبر على أذى قومه وصارهم  
ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

ولن يزال ملتان عظيم الثقة في إنجلترا، يقدرها حق قدرها  
ويراها خير أمة منذ قام العالم، فهي أمة ذكية بصيرة حازمة،  
ذات روح وثابة سريعة إلى ما تريد، لن تتخاذل عن أقصى ما  
تصل إليه القدرة البشرية، عريقة في المعرفة على اختلاف فروعها  
حتى يمكن القول إن مدرسة فيثاغورس والحكمة الفارسية

القديمة إنما استمدتا بدايتهما من إنجلترا؛ ولها في الدين وما هو  
من بابه من المعرفة، باع طويلاً وقدم راسخة، فلولا ما كان من  
مقاومة بعض القساوسة لوكليف<sup>(١)</sup> ونظرتهنم إليه كصاحب  
بدعة وداعية شقاق لما سمع أحد عن لوثر أو كلثن نفسيهما، ولن  
تزال إنجلترا مبعث كل دعوة إلى الإصلاح ومنازل كل نهضة تقوم  
في القارة، وسبق لها نغز إصلاح جيرانها غير منتقص ذلك الفخر  
أبداً ... وقد تأذن الله لكنيستها بمصر جديد عظيم سوف تصلح  
فيه الإصلاح نفسه، وكان أن تجلى الله لمبادئه وبدأ كما هو شأنه  
بالإنجليز منهم ...

ولئن عظم أمله في إنجلترا وما يرجى فيها من خير، فإنه يوجس  
خيفة من التنكر للحرية كما فعل البرسبيريتر، ولذلك فإنه يراهم  
شراً أي شر، فما يحجب نور هذا الأمل عن البلاد إلا عنادهم  
واجترائهم على فعل ما كرهوه من قبل عما فعل القساوسة.

وينظر ملتان لهم القول وينف عليهم كما صنع بالقساوسة فيرميهم  
بالتناق والجشع، فإيتاني الإخلاص تقوم بكرهون الحرية ويعترضون  
لها وما عبادته إلا حرفة احترفوها وتجارة يخشون كسادها ثم  
يتنبأ في آخر كتبه بأن سوف يلقى الباطشون من يبطش بهم،  
ولعله بذلك يستخرج من مجرى الحوادث السياسية أن المستعنين  
سوف يعملون على سحق سلطة البرسبيريتر بعد أن يفرغوا من  
عجارية الملك ولقد جاءت الحوادث بعد ذلك محققة ما لمح به.

وكرهت رجعة البرسبيريتر كما يزعم إليه كل القاعين على  
شؤون الدين، ولا عبرة بالذهب، وقر في نفسه أن حرية الفكر  
والرأى مستحيلة ما دام هؤلاء قوامون على الناس، وعنده أن  
تعمد القساوسة إنما يظهر في صور وأشكال جديدة؛ وما دام  
الأمر كذلك فلا إصلاح يرجى؛ إذ كيف يتحقق الإصلاح بغير  
الوصول إلى الحق، ولا سبيل إلى الحق إلا الحرية ويريد بها تحرير  
العقل من الجهالات والضلالات ليفكر طليقاً ويتدبر فيما جاء به  
السيح غير مقيد بقيد مهما كان نوعه أو كان مبلغة من الشدة أو

(١) مصلح دين من القساوسة في القرن الرابع عشر طرب النبوت

القائمة حوله وترجم العهد الجديد.

الضئف ؛ وإذا فالسكر الحر والرأى الحر هما سبيلتا الإصلاح الحق ولا سبيل غيرهما .

لقد جاء المسيح بالهدى والحق إلى هذه الدنيا ، وذلك مبين في الإنجيل ، ولكن الناس بعيدون عما بين لهم من الهدى لأنهم أخذوا أخطاء المفسرين على أنها الحق المقدس وفي ذلك أبلغ الضرر ؛ ولا مخرج لهم إلا أن يناقشوا المسائل التي يحيط بها الشك مناقشة لا قيد فيها حتى يهتدوا إلى الصواب ، ولن يستطيعوا أن يفعلوا ذلك إلا أن تتاح لهم الحرية ، فكان الذين يخفون الحرية إنما يحولون بين الناس وبين ما آتاهم المسيح من الهدى وأى إثم هو أكبر من هذا الإثم ؛ وكيف بطمع المصاحون في الإصلاح إلا أن يكفوا أبدي هؤلاء البرستيريئز الذين يصدونهم عن سبيله ويزعمون أنهم هم المصلحون ...

بهذا المذهب القوي أزعج ملتن البرستيريئز ، فثل هذا الكلام يكون أشد وقعا وأعظم أثرًا من الهجاء مهما أقدع ، ولذلك كانت هذه الحرب أقوى من حربه على القساوسة وإن بدت أقل منها ضجيجًا لأن صلاحه فيها كان أمضى ولأنه يقاتل في سبيل مبدأ تميل إليه بطبيعتها النفوس ...

تلك هي خلاصة الأيرواجيكا ؛ ويزعم بعض النقاد وأحسبهم على حق فيما يزعمون أنه لو لم يكن ملتن صاحب الفردوس المفقود وصاحب كومس والفردوس للتمتاد وغيرها من الشعر لتعبت كتاباته الثرية مع الزمن إلا هذا الكتيب الذي جله للدفاع عن مبدأ من أجل المبادئ ، في حياة بني الدنيا منذ أقدم عصورها إلا وهو حرية العقل لا في تفكيره فحسب فإن ذلك طوع كل فرد ذكى بل في إعلان ما يرى من رأى .

ويجيب هذا الكتيب إلى النفوس فضلا عما يدافع عنه من مبدأ فيه ، ما ساقه ملتن من أمثلة وما لجأ إليه من الإشارات والتلميحات كما يفعل في شعره ، وكان التاريخ هنا هو الكثر الذي استخرج منه أصدافه ولآله ، وحسبك أن يلجأ إلى سقراط واستشهاده وإلى جليليو وما لاقى من كوارث وإلى أفلاطون ويبيكون وإرزمس وسينسر التي وصفه بقوله « شاعرنا الحكيم الروماني » ، وأضرابهم ممن اهتدوا بنور العقل في ظلمات الجهل

فكانوا على طريق الإنسانية مصايح تنطوى القرون ونورهم أبلغ وكلما اشتدت الظلمة ازدادوا ظهوراً ككواكب السماء ونوراً ... وحسبك أن يشير إلى أننا وأن يمتدح فيها النشاط العقلي وأن يشيد بما كان يعلم آباء المسيحية الأولون من علوم الأقدمين ؛ إلى كثير من أمثال ذلك مما يسوقه براهين على فضل العقل ، ففى العقل وحده الخلاص من نير الجهل مع شرف القصد والإخلاص في استجلاء الحق لا في الخضوع لكل منقول والتسليم به في غير تدبر فيه ...

وهو فيما يسوقه من هذه الأمثلة إنما يعرض بالبرستيريئز الذين أنكروا منه ما اهتدى إليه بعقله في أمر الطلاق والذين هالهم منه تأويل ما أول من عبارات الإنجيل لتتمشى مع ما ذهب إليه من رأى أو الذين رموه بالفسوق لأنه طلب تحكيم الضمير والاستمانة بالعقل فيما يلتبس فيه الأمر من أحكام الإنجيل ولا يتفق في ظاهره مع طبائع الأشياء .

والحق أن ملتن خليف بأن يشير إعجاب الناس به جيلا بعد جيل ، فقد كان لشخصه من الجلال ولروحه من القوة ولنفسه من العزة ما لا يتوفر مثله إلا للأفذاذ القليلين على فترات من الزمن ؛ ولا نجد فيما تحدث عنه المؤرخون خيراً من حديث مكولى عن خلقه فلنأت به على مرده . قال مكولى « وبقي بعد ذلك أن نتحدث عن اثنين اللذين استمد منه خلق ملتن العام عظمتهم وروعته الخاصة به ، فلتن كان قد أتمب نفسه ليقضى على ملك حانت<sup>(١)</sup> أو سلطة كهنوتية ظالمة ، فإنا فعل ذلك مشتركاً مع غيره من الناس .

ولكن بعد المعركة التي خاض غمارها من أجل ذلك الضرب من الحرية التي هو أعظم ضررها قيمة ، وإن كان أقلها حظاً يومئذ من إدراك الناس ، وأعنى به حرية العقل البشرى كان بأجمعه مجده وحده ...

لقد دفع الألوف من معاصريه وعشرات الألوف منهم أصواتهم ساخطين على ضرائب السفن وعلى عككة غرفة النجم ، ولكن لم يفتن إلا قليل منهم إلى ما يمد شره أعظم من ذلك هولا ألا وهو الرق العقلي والخلق ، ولا إلى ما مسمى أن يمود من

(١) بيان ذلك عند الكلام على الجانب السياسى من حياته .

أن يلبسه كشعار فوق يده وكذؤابة بين عينيه ؛ وكانت لا توجه هجماته بوجه عام إلى المساويء الخاصة بقدر ما كانت توجه إلى تلك الأخطاء المتأصلة التي تكاد تبني على أسسها جميع الأخطاء ألا وهي العبادة الخائفة لذوى المكانة من الناس ، والخوف الذى هو ليس من العقل فى شئ من كل تجديد .

ولكى يزول أسس هذه النوازع المذلة زلزالاً أشد وأوفى بالنرض ، كان يختار ملئن نفسه دائماً مما يبذل من الخدمات الأدبية أدعاها إلى الشجاعة والجرأة ولم يكن يأتى قط فى المؤخرة بعد أن تنقص الأيدى من الجهود الخارجية وتنفذ الجنود من الثغرة ، وإنما كان يدفع بنفسه المقدمة إلى ما تتعاذل دونه الآمال .

فى بداية ما حدث من أوجه التغيير ، أخذ يكتب بشكل ما فى وسعه من نشاط وفصاحة لا يجاربه أحد فيها مندداً بالقساوسة ، فلما بدله أن آراءه قد تم لها القلبة تجاوزها إلى موضوعات أخرى ، وترك القساوسة إلى طائفة كبيرة العدد من الكتاب أسرعت بعده إلى التهجم على تلك الفئة التى تهوى ...

وليس ثمة من عمل أشد خطراً من الاضطلاع بحمل مشعل الحقيقة إلى الجاهل الموبوء التى لم يضىء فيها نور قط ولكن ملئن كان يختار لنفسه دائماً أن يقتحم ذلك الضباب الصاخب ، وكان يسره ذلك الاختيار كما كان يسره أن يركب الأخطار فى ذلك الاكتشاف الذى يمت الرعب ؛ ويجب على أشد الناس إنكاراً لآرائه أن يحيطوا بالتوقيع ما لاقاه فى سبيل استمساكه بها من عنق وشدة ، ولقد ترك لغيره فى الجلة العمل على شرح الجوانب المقبولة من عقيدته الدينية والسياسية والدفاع عنها ؛ أما هو فقد جمل من نصيبه أن يؤيد العقائد التى رأى جمهور مواطنيه أنها آثمة والتى سخروا منها لأنهم زعموا أنها متناقضة ، فقد زاد عن حق لإباحة الطلاق وأيد إعدام الملك وهاجم نظام التعليم السائد فى أيامه<sup>(١)</sup> وإن عمل الخير الذى يشع النور ليشبه فى كلمة الخرافة عمل إله الضوء والخصب »

والحق أن الدفاع عن الحرية كان هدفه فى معظم ما كتب ، فقد دافع عن الحرية الدينية بحربه على القساوسة وعن حرية النشر

خير على الإنسانية من وراء حرية النشر ، ومن وراء الحكم الشخصى على الأشياء يجرى به رأى غير مقيد بقيد ؛ هذه هى الأغراض التى رأى ملئن أنها بحق أعظم الأغراض خطراً ، وكان توافاً إلى أن يرى الناس يفكرون لأنفسهم كما أنهم يشعرون الضرائب لأنفسهم ، وأن يتحرروا من سلطان الهوى ، كما قد تحرروا من سلطان «شارل» ، وكان يعلم أن الذين اعتلوا صنوف الإصلاح هذه ونفوسهم تنطوى على أحسن المقاصد ، وقنموا بإسقاط الملك وإلقاء اللسكين الطاغين فى السجن ، إنما سلكوا مسلك الآخرين النافلين فى قصيدته اللذين ألهاهما فرط حرصهما على تفريق الساحر وقبيله فأهملوا وسائل تحرير أسيره ، لقد فكروا فى هزيمته فقط فى حين كان ينبغي أن يفكروا فى حل ما عقد من طلامم السحر : « لقد أخطأنا ، فإنه كان ينبغي أن تحتفظا عصاه وتشدنا وثاقه ، وذلك أننا وقد فاتنا أن نقلب المصاراً إلى عقب ونقرأ فى اتجاه عكسى كلمات الساحر ذات القوة التى تفكك الأوصال ، لن نستطيع أن نطلق سراح هذه السيدة التى تجلس هنا مغلولة بأغلال شديدة ، فهى فى مكانها ثابتة لا تتحرك »<sup>(٢)</sup>

وكان العمل على أن تقلب العصا ، وأن تقرأ كلمات السحر فى عكس اتجاهها ، وأن تفكك القيود التى تشد الشعب الأبله إلى مقعد السحر ، كل أولئك كان ما يسمى إليه ملئن من غرض نبيل ، وإلى هذا الفرض وجه مسلكه فيما يتصل بالناس كله ، فمن أجله انضم إلى البرسبتيريز ومن أجله اعتزلهم ، ولقد خاض معركتهم المحفوفة بالمخاطر ، ولكنه نأى بجانبه عنهم مضمئراً ساعة انتصارهم الوقع ، ورأى أنهم كانوا كمن هزمهم لحرية الرأى أعداء ، ومن ثم فقد انضم إلى المستقلين ودعا كرمول<sup>(٣)</sup> أن يحطم ما نسب إلى الدين من عل وأن يخلص الضمير الحر من مخلي الذئاب البرسبتيرى ؛ وهاجم ملئن وهذا الفرض النبيل نصب عينيه قانون الطبع والرقابة فى مقال رفيع الطراز<sup>(٤)</sup> يجدر بكل سياسى

(١) راجع غثائفة كومى وهذه العبارة من كلام الروح الحارس للاخوين .

(٢) سيأتى بيان ذلك عند الكلام على مطوعته الشعرية التى وجهها إلى كرمول سنة ١٦٥٢ .

(٣) يقصد به مقال الأير وباجيتيكار .

(٤) انظر الفصل الثالث

مطبوعاً على حب الحرية وعلى الجهر بما يؤمن أنه الحق ، ومن أجل ذلك كانت نفسه ثورة متصلة الحلقات منذ أن عصى أباه وهو صغير إذ أراد أن يسلكه في سلك الدين بالخاقه بالكنيسة وأبى إلا أن يهب للشعر نفسه ، ومنذ أن كان يتأبى على قيود عرقية في الجامعة وينكر على الجامدين فيها جمودهم ، إلى أن جاهر الإيطاليين بمخالفته لإيم في فطرهم الدينية على الرغم مما حذر به وليسوا قومهم ، إلى أن أذن القساوسة في وطنه بحرب منه ، كل أولئك لأن نفسه تأبى إقرار الباطل ولا ترضى بغير الحق ...

ولا يسمع كل منصف إلا القول بأن ما يشير إليه بعض الناس من دوافع شخصية إنما هو دليل على سلامة عنصره ونبل نفسه وسمو روحه .

الخصيف

(ينبع)

الأستاذ صلاح الدين النجدي بقرم :

## الظرفاء والشحاذون في العصر العباسي

وهو كتاب طريف لطيف ممتع

لا تستطيع أن تتركه حتى تقرأه كله

وفر طبع في « مطبعة الرسالة » طبعاً متقناً

يطلب من دار « الرسالة »

ومن المكتبات الشهيرة وثمة ١٢ قرأة غير أجهزة البريد

بجملته على الرقابة ، وعن حرية الضمير بالظن على البرسبيريتر وعن حرية الأسرة بأنكار ما يتطوى عليه قانون الزواج من استبداد أو عن الحرية المدنية كما سنفصله في حينه بإعلانه السخط على طغيان التاج ...

ولكن بعض النقاد يردون ذلك إلى دوافع شخصية يحاولون بذلك أن ييخسوه أعماله ، فيقولون إنه هاجم القساوسة لأنهم أبدوه عن الكنيسة ، ويدافع عن حق إباحة الطلاق لما صادف في زواجه من خيبة ، ويفض على البرسبيريتر وينتمهم بضيق العقل لأنهم لم يقرروه على ما ذهب إليه في أمر الطلاق ويدعو إلى حرية النشر لأنهم أرادوا أن يخنفوا كتبه ...

وإيس في وسعنا أن ننكر تلك الدوافع الشخصية التي يشير إليها هؤلاء النقاد ، فإن شدة شعور ملن بذاته من أبرز مقومات شخصيته منذ نشأته أكثر تصرفاته إنما تم بدافع من ذلك الشعور ، ما في ذلك ريب ، ولكننا لا نفهم كيف يقتصر ذلك من قدره وكيف يمد عليه ولا يمد له ؟

هذا رجل يرى حياته وحياته غيره بالضرورة محفوفة بقيود من القانون والعرف ، فيأبى على القيد ويشور لا يريد أن يهدأ حتى يقضى على ما استرق الناس من عباداتهم ومما جرى به العرف بينهم ومما وضعت القوانين من الأغلال في أعناقهم ، فإذا بدل عليه ذلك إن لم يدل على شخصية قوية ونفس أبية وضمير حر ؟

وهل جاهد ما جاهد في غير عدو ؟ ألم يكن على حق فيما أنكر من عيوب عصره ؟ إن كانت تلك السيوب قاعة حقاً فلا يمكن أن يقال إن أهواءه ومطالب نفسه هي التي سيطرت على فكره ؛ فلا يبقى إلا أن دوافع شخصية حركته وهذا إنما يدل على أنه أحس قبل أن يحس غيره بضرورة الإصلاح ، وأن الوضع الاجتماعي في كاله اللشود إنما يقاس مبلغ كاله بمقدار ما فيه مما يشا كل كاله نفسه وتلك قاية تتخاذل دونها النايات .

وهل كان يستطيع أن ينمض المين غير مساوي عصره لو لم تحركه دوافع شخصية إلى استنكارها ؟ ذلك ما لا يستطيع أحد أن يقوله ، ولا هو بما يجوز في عمل طاعيل إلا على أوزاع الناس والمجمع منهم ، ولقد كان ذلك للشاعر القوي الروح العظيم الثقافة